

أثر اللغة العربية والشعر العربي في البناء الحضاري بغرب أفريقيا

إعداد/الدكتور عبد الصمد عبد الله



ندوة كلية اللغة العربية جامعة أم القرى بمكة المكرمة
بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية
يوم الأربعاء ١٥ / ٢ / ١٤٣٥ هـ الموافق ١٨ ديسمبر ٢٠١٣ م

ملخص البحث

لقد ساهمت اللغة العربية عموماً والإسلام خصوصاً في التطور الحضاري لمنطقة السودان الغربي جنوبي الصحراء الكبرى والموسومة اليوم جغرافياً بمنطقة غرب أفريقيا، وذلك ابتداءً من تاريخ غانة، الإمبراطورية الإسلامية الأولى في المنطقة، وانتهاءً بآخر إمبراطورية إسلامية قامت في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي في منطقة ما يسمى اليوم بنيجيريا، ألا وهي دولة صكتو الإسلامية.

وقد انتعشت اللغة العربية حضارياً في كل من إمبراطورية غانة الإسلامية وخليفاتها إمبراطورية مالي الإسلامية ثم إمبراطورية صنغاي الإسلامية التي بلغت فيها الحضارة الإسلامية واللغة العربية أوج قمتيهما، إلى أن غزاها جيش المنصور المغربي الذي استنزفها اقتصادياً وعسكرياً ونكّل بأهلها ونفى بعض علمائها خارجاً، مما نتج عنه انحطاط حضاري كانت عواقبه سيئة للحضارة الإسلامية ووخيمة على اللغة العربية على وجه الخصوص، حيث شلت الحضارة الإسلامية وركدت اللغة العربية وانحصرت إلى أن قيّض الله لها من يبعثها للقيام من جديد بدورها الحضاري المنشود، وذلك في دولة صكتو الإسلامية. كان ذلك على يدي مؤسسها الداعية المجدد الشيخ عثمان بن فودي المصلح الديني والاجتماعي الذي أسس دولة على غرار الدولة الإسلامية في العهد النبوي الشريف، وجعل اللغة العربية لغتها الرسمية.

و هكذا انتعشت اللغة العربية من جديد ونهضت بمهامها الحضارية خير نهوض من خلال كتابات الشيخ المجدد الإسلامية في ميادين العلوم المختلفة، و في كتابات أخيه ووزيره الشيخ عبد الله بن فودي وابنه الأمير محمد بلو بن عثمان بن فودي وغيرهم من أبناء الشيخ وبناته وأعوانه وأتباعه من العلماء. ولم يقتصر دور اللغة العربية في الكتابات العلمية فحسب وإنما تجاوز ذلك إلى كتابات فنية تمثلت في النثر الفني والشعر، حيث وظّف الشعر في البناء الحضاري للدولة ممثلاً في حركة المقاومة الإسلامية وحث الناس على الجهاد للدفع عن بيضة الإسلام، ودعوتهم إلى السلوك الإسلامي السوي. وترنو هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مظاهر البناء الحضاري للغة العربية عموماً والشعر العربي خصوصاً في

هذه الإمبراطورية الإسلامية وتجليات آثارهما على الأصدعة الدينية والثقافية والاجتماعية و السياسية والعسكرية .

حالة اللغة العربية والمناخ الثقافي الذي تحركت فيه حضاريا في غرب أفريقيا

من مقتضيات الحديث عن دور اللغة العربية والشعر العربي في البناء الحضاري في غربي أفريقيا الحديث عن حركة اللغة العربية، ومدى انتشارها في ربوع المنطقة قبل الاستعمار. فقد امتدت الثقافة العربية الإسلامية في المغرب إلى السودان الغربي. وكانت لهذه الثقافة منافذ أطلت منها على ربوع المنطقة. منها التجار، وقد تحدث المؤرخون عن طرق القوافل التجارية التي كانت تصل السودان الغربي ومصر من جهة، والتي تربط بينها وبين شمالي أفريقيا "تونس" من جهة أخرى، ثم التي تربط بينها وبين المغرب الأقصى من جهة ثالثة. كانت هذه العلاقة تجارية في بدايتها، وبظهور الإسلام ودخوله في السودان الغربي أصبحت علاقة دينية ثقافية في الدرجة الأولى. وجاءت هذه العلاقة الدينية لتجعل هذه الشعوب أمة واحدة تلتمس نظم حياتها وقيمها الأخلاقية من مصدر واحد هو الإسلام بجوانبه الشاملة للحياة. وكان من الطبيعي إذن أن يهرع أهل السودان الغربي إلى تعلم هذا الدين الذي وجدوا فيه صلاح أمورهم، وأن ينشطوا إلى تعلم لغته ليتمكنوا من أداء شعائرهم على أتم وجه.

وبتعلم اللغة العربية أصبح مسلمو السودان الغربي يمثلون الطبقة المفكرة الراقية في تلك المنطقة حتى أن خبراء الإدارة والتخطيط في الممالك الوثنية لم تجد بداً من الاستعانة بهم في أمور الدولة. هنا بدأت رحلة اللغة العربية في البناء الحضاري لمنطقة غرب أفريقيا حيث احتل المسلمون مناصب الترجمة والإدارة في إمبراطورية "غانة" الوثنية قبل أن تصبح إمبراطورية مسلمة^{١١}.

واستمر الحال على هذا الوضع حتى بعد إسلام الإمبراطورية وسقوطها وقيام دولة "مالي" المسلمة على أنقاضها وقد وصف ابن بطوطة هذه الإمبراطورية الإسلامية ومدى حرص أهلها حكومة وشعباً على تعليم أولادهم الدين واللغة العربية وتحفيظهم القرآن الكريم كما أشاد المؤرخون بالزيارة التي قام بها "أسكيا محمد" إلى القاهرة في طريقه للحج وكان من نتائج النصائح والإرشادات التي أسداها إليه رجال الدين البارزون في

القاهرة، مثل جلال الدين السيوطي وغيره أثر كبير على تطوير التعليم في المنطقة ... فقد تطور التعليم في جامع "سنكوري" وأصبح قبلة للطلبة في السودان الغربي، وكانت العلوم التي تدرس فيها هي:

الفقه المالكي وأصوله واللغة والنحو والبلاغة والصرف والمنطق والتاريخ والجغرافيا والفلك والحساب، وليس من قبيل المبالغة أو الشطط القول بأن المراكز الإسلامية في السودان الغربي أصبحت صورة مصغرة للثقافة الإسلامية في مصر والمغرب بفضل هذه الزيارة المثمرة التي قام بها "أسكيا محمد" إلى القاهرةⁱⁱⁱ. وكان على رأس حركة "أسكيا محمد" الإسلامية النشطة العالم الجليل "الإمام المغيلي" الذي كان له دور بارز في نشر الإسلام وتدعيم مفاهيمه والدعوة إليها وتوجيه الحكام للعمل بها في طبع المجتمع بطابع إسلامي^{iv}.

مراكز الإشعاع للثقافة العربية الإسلامية في المنطقة

أما مراكز الإشعاع الثقافي العربي الإسلامي في غرب أفريقيا فتتمثل في التالي:

أ. تمبكتو:

وهي مدينة إسلامية منذ نشأتها "وما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها لغير الرحمن"^v. بنيت فيها المساجد وقصدها كثير من العلماء وتحلق حولها العديد من طلاب العلم فأصبحت "تمبكتو" مركزاً ثقافياً إلى جانب كونها مركزاً تجارياً هاماً^v، وكان لسان سكانها فيها لغة صنغاي. أما العربية فكانت لغة الثقافة والإدارة معاً، كما تحدث بها الناس كلغة شائع استعمالها^{vii}. واشتهرت "تمبكتو" بحركتها الثقافية على النمط الإسلامي في السودان الغربي كله طيلة أيام "مالي" و"صنغاي". وقد خلفت لنا كثيراً من العلماء النجباء النحارير، وكان من أشهرهم أحمد بابا التمبكتي صاحب كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج، والسعدي، صاحب "تاريخ السودان"، والقاضي "ألفع محمود كعت" صاحب "تاريخ الفتاش".

ب. جنى:

وهي تأتي في الدرجة الثانية بعد "تمبكتو" وكان بها كثير من العلماء وطلاب العلم، ولذا كانت أهميتها تجبر "الأساكي" على احترامها، فكلما مر جيشهم بها فإنهم يلاقون قاضيتها ويقدمون له الهدايا أو يساعدونه على

بناء مأوى لطلاب العلم أو بناء مسجد من المساجد . ونعرف من علمائها الشهيرين أيام "الأساكي" "موري جانا" الذي كان يباشر التعليم بمساجدها في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، ثم القاضي "سانو" وكذلك "العباس كبي" و"محمد بار هايورو"^{viii}. ومن هذه المراكز أيضاً "غاو" و"ولاته" و"كانو" و"كاتسنا" .. وتلك هي مراكز الإشعاع الثقافي الإسلامي الكبرى في السودان الغربي في تلك الفترة المبكرة من تاريخ المنطقة الإسلامي، وإلى جانبها مصادر أخرى للإشعاع منها، المساجد، والمدارس، والعرائش المبنية في ربوع المنطقة، والمدارس الأخرى التي تأخذ مكانها تحت الأشجار، ودهاليز العلماء وغيرها كالأفنية التي تتخذ للكتابات والخلوات والزوايا ..

وهكذا أخذ التعليم العربي الإسلامي يخطو خطوات حثيثة نحو التقدم والازدهار إلى أن وصل إلى أوج قمته وازدهاره في مملكة "صنغاي" أيام "الأساكي". وقد أثنى الباحثون على أسلوب أحد كتاب هذه الفترة وهو "أحمد بابا التمبكتي" ووصفه بأنه أسلوب امتاز بالجزالة والموضوعية العلمية والتمكن من المفردات، وكتابة الجمل متناسقة وقصيرة^{ix} شأن المتمكن من اللغة.

إن القبائل التي دخلت الإسلام قد اتخذت اللغة العربية لغة حياة كاملة، ومن ثم فإنها تذوقت قسماً هاماً من الثقافة العربية وأنتجت فيه. أما نتاجها الفكري فقد اصطبغ بالصبغة الإسلامية، وطبيعي أن يكون الأمر كذلك، فالذين كانوا ينتجون في هذا الميدان إنما كانت تمثلهم النخبة التي تمكنت من الدين الإسلامي بواسطة اللغة العربية.

واصطبغت حركة الفكر بصبغة جديدة هي التي كان يمثلها الانسجام الكلي مع الإسلام، فنحن نجد في المدن الكبيرة التي كانت تتركز حولها ميادين النشاط الإنتاجي والتعامل التجاري مثل "تمبكتو" و"ولاته" و"كانو" و"كاتسنا" وغيرها علماء ومفكرين وقضاة قد تمكنوا من دراسة اللغة العربية والفكر الإسلامي، حتى أصبحوا ينتجون في ميادينها مختلف مؤلفاتهم بالشروح والكتابات التاريخية والفقهية واللغوية على النمط الذي كان عند العرب في المشرق والمغرب على السواء.^x

وهكذا ازدهرت اللغة العربية وتمكن منها السودانيون وأنتجوا فيها طرائف رائعة إلى أن بدأ الجيش المغربي الغازي في اقتلاع جذورها، فبدأت تذبل شيئاً فشيئاً حتى وصف بعض المؤرخين نتاج تلك الفترة الراكدة بأنه يتسم بالركاكة لبعده عن المتانة والجزالة، ولكثرة الحشو واستعمال تعابير غير فصيحة^{xi}. ومهما يكن من أمر فإن الكتابات التي وصلت إلينا من ذلك

الوقت هي كتابات قليلة وكلها باللغة العربية، ومن الاطلاع على مجموعها يستطيع الدارس أن ينتهي إلى القول بأن الكتابة العربية قد بلغت مستوى مقبولاً لدى كتاب تلك الفترة من السود.

أهم المؤلفات العربية التي كانت تدرس في المساجد والزوايا والخلوات

و تجدر الإشارة هنا إلى الكتب التي أثرت في الثقافة العربية الإسلامية لهذه المنطقة حسب فنونها وهي كالتالي:

الفقه وأصوله:

- ١ - المدونة الكبرى. ٢ - مختصر الخليل. ٣ - المنتقى للباجي. ٤ - تحفة الأحكام لابن عاصم ٥ - جامع معيار الوئشريسسي. ٦ - جمع الجوامع للسبكي. ٧ - التوضيح. ٨ - رسالة ابن أبي زيد القيرواني. ٩ - الأخرية. ١٠ - العشماوية. ١١ - العزية. ١٢ - منظومة القرطبي. ١٣ - ابن رشد. ١٤ - ابن عاشر. ١٥ - الورقات لإمام الحرمين. ١٦ - أصول السبكي. ١٧ - القرافي. ١٨ - الكوكب الساطع.

الحديث وعلومه:

- ١ - كتب الصحاح الستة. ٢ - الموطأ للإمام مالك. ٣ - ألفية العراقي.

السيرة النبوية:

- ١ - ألفية العراقي في الشمائل النبوية. ٢ - الشفا للقاضي عياض. ٣ - سيرة ابن هشام.

القراءات:

- ١ - منظومة ابن البري. ٢ - القصيدة الشاطبية.

التوحيد:

- ١ - السنوسية وشرحها.

التنجيم:

- الهاشمية في التنجيم.

المنطق:

- ١ - رجز المغيلي. ٢ - مقدمة التاجوري.

النحو:

- ١ - الأجرومية. ٢ - ملحمة الأعراب للحريري. - قطر الندى لابن هشام. ٤ - شذور الذهب. ٥ - بلوغ الأرب. ٦ - خلاصة ابن مالك. ٧ - البهجة المرضية للسيوطي. ٨ - المنهج السالك للأشموني. ٩ - شرح قطر الندى

للمارديني. ١٠ - الفريدة للسيوطي. ١١ - التحفة الوردية وشرحها. ١٢ - مختصر ابن الحاجب. ١٣ - تسهيل ابن مالك. ١٤ - فرعا ابن الحاجب.

اللغة والأدب:

١-الهمزية ٢-البردة ٣- العشرينات. ٤ - الوترينات. ٥ - الشعراء الستة. ٦ - مقصورة ابن دريد. ٧ - المقامات للحريري. ٨ - الحكم العطائية. ٩ - الدالية العروض والقوافي:

١ - الرامزة. ٢ - الدرر اللوامع. ٣ - الخزرجية.

البلاغة:

١ - تلخيص المعاني. ٢ - ألفية المعاني. ٣ - الجوهر المكنون. ٤ - شرح النقاية للسيوطي. ٥ - تلخيص المفتاح. ٦ - مختصر السعدي. ٧ - صغرى السنوسي. ٨ - نظم ابن مقرعة. ٩ - شرح الجزائرية^{xii}. وقد شاعت وأثرت في المنطقة كتب للإمام المغيلي التلمساني الذي كان له أثر بالغ الأهمية في الاتجاه الفكري للمنطقة.

تلك هي الكتب المتداولة في هذه المنطقة. ومن الضروري الإشارة إلى أن كتاب الشعراء الستة الجاهليين من أقدم النصوص الشعرية التي كانت متداولة في هذه المنطقة، وعليه وعلى الاستشهادات الشعرية الموثقة في كتب البلاغة والنحو والتاريخ وغيرها اعتمدوا في تكوين ملكاتهم الفنية بعمامة والشعرية بخاصة.

في هذه التربة الثقافية، نشأت الكتابة العربية في غربي أفريقيا وتطورت إلى مرحلة الإبداع الفني في مجالي النثر و الشعر العربيين. وكما ذكرنا سلفاً، قد أصيبت العربية بانحسار- بعد انتعاشها ونهوضها بدورها الحضاري في كل من إمبراطورية غانة ومالي وصنغاي- بسبب الغزو الجائر للجيش المغربي للمنطقة مما سبب لها الركود في تأدية مهامها الحضارية. وبعد فترة الركود هذه، انتعشت الثقافة العربية الإسلامية مرة أخرى في دولة صكتو التي أسسها "الشيخ عثمان بن فودي" المصلح المجدد، وذلك في كتاباته وكتابات أخيه الوزير عبد الله بن فودي وابنه "محمد بلو"، وغيرهم من كتاب تلك الفترة. أضف إلى ذلك أن الشيخ المجدد قد وضع لدولته نظاماً إدارياً دقيقاً خاضعاً للنظم الإسلامية وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية والثقافية فيها، وتشهد الرسائل التي تبودلت بين الشيخ المجدد والشيخ "الكانمي" على ما وصلت إليه اللغة العربية من ازدهار وتطور في تلك الفترة. و لنعرج الآن على دولة صكتو لنميط اللثام

ونكشف القناع عن مظاهر البناء الحضاري للغة العربية والشعر العربي فيها.

مظاهر البناء الحضاري للغة العربية في إمبراطورية صكتو

أ- تجليات اللغة العربية في الحياة الاقتصادية والدينية والاجتماعية و السياسية

استعارت كل من اللغتين الهوسوية والفلانية من اللغة العربية ما يربو على خمس كل من اللغتين من كلماتها ذات الصلة بالحضارة، ويمكن تصنيف الكلمات التي استعارتها اللغتان المذكورتان فيما يلي:

١. الكلمات المتصلة بالتجارة وحقولها الدلالية

وقد استعيرت هذه الكلمات وشاعت في اللغتين من العصور الوسطى نظرا للتواصل الذي كان جاريا بين العرب وبين سكان السودان الغربي، وتمتاز هذه الفترة بكون تأثير العربية الحضاري على لغات القوم في المنطقة محدود النطاق ومقتصرا على عدد قليل من الكلمات التجارية التي أصابتها تحريفات من الناحية الصوتية من أمثال الكلمات التالية على سبيل المثال لا الحصر:

العربية	الهوسوية	الفلانية
الغير	أيري	أيرو
الذئبق	زيبا	زيب
القمح	ألكما	الكماري
الصريف	أزرفا	
الدينار	زيناريا	
الإبرة	اللور	
الربح	ريب	ريب
الخسارة	أسارا	أسر

٢. الكلمات والمصطلحات الدينية والتشريعية والسياسية والفنية

والتأثير الحضاري للغة العربية في هذا النطاق يحسب للإسلام إذ بظهوره في المنطقة تم تأسيس المدارس القرآنية والعلمية والتي بدورها قامت بإدخال الكلمات والمصطلحات الحضارية العربية في بعض لغات أفريقيا الغربية فأدت بذلك دوراً شبيهاً بالدور الذي قامت به اللغة اللاتينية نحو اللغات الأوروبية. وقد قل التحريف في الكلمات العربية المستعارة في هذه الحقبة ، اللهم إلا ما وجد من صعوبات صوتية ترجع إلى غياب صوت بعينه في الكلمة المستعارة من أصوات اللغة المستعيرة. وقد استبدلت بأسماء الأيام والشهور وكذلك الأعداد من عشرين إلى تسعين في اللغتين الهوسوية والفلاندية ألفاظها العربية حتى غدت الأسماء الأصلية الأفريقية مجهولة مع الزمن لدى الكثيرين. هذا في مجال المعجم اللفظي والدلالي. أما في مجال الكتابة فقد أصبحت معظم اللغات المحلية تكتب بالحروف العربية مضافا إليها بعض النقاط للتعويض عن الأصوات الغائبة عن العربية والحاضرة في اللغات المحلية التي تكتب بالحروف العربية مثل: ب و ظ معجمة بتعجيم من نوع خاص ثم استعارت اللغتان الهوسوية والفلاندية بحور العربية وأعاريضها في نظم الشعر الهوسوي والفلاني. كالطويل والبسيط والرجز والمديد والوافر والكامل والمتقارب وغيرها. وكانت في البداية ينظم ويشعر بها العلماء ثم انتشر استعمالها لدى العامة فحاكوها ونظموا أشعارهم في اللغة المحلية بها. وكان لالتزام القافية الواحدة دور فعال في إدخال عدد كبير من الكلمات العربية إلى اللغة الهوسوية والفلاندية فأثرت العربية بهذا الصنيع اللغتين إثراء كبيرا. XIII و بظهور الإسلام مصطحبا باللغة العربية دخلت الكتابة في بلاد السودان وبدأ أهلها يقرؤون ويكتبون، وباللغة العربية دونوا مشاعرهم وأحاسيسهم ونظموا شؤون دولتهم وممالكهم وسجلوا تاريخهم وحضارتهم وبلغوا في العلم والحضارة مبلغا يباهون به البلاد العربية والإسلامية الأخرى في تلك الحقبة فأثروا بالعربية وأثروا بعروبتهم الدينية ووصل بعضهم في العربية درجة الاجتهاد. وقد تركوا آثارا مكتوبة تلهج بالإشادة بدور الإسلام واللغة العربية الحضاريين وفعلهما الحضاري الحسن في معتنقي الإسلام.

لقد كانت اللغة العربية قد تطورت في أوساط العلماء في منطقة برنو وفي ممالك الهوسا المترامية الأطراف في منطقة ما يسمى اليوم ببنيجيريا. وآية ذلك المكاتبات التي دارت بين محمد الأمين الكانمي في سلطنة برنو وبين الشيخ عثمان بن فودي مؤسس دولة صكتو الإسلامية. كما أن الألف عالم الذين انتدبهم سلطان غوبر لمناظرة الشيخ عثمان بن فودي حول حركته الإصلاحية وجهاده الإسلامي دليل على تطور اللغة العربية وانتشارها في المنطقة على الأقل في أوساط العلماء المسلمين قبل تأسيس دولة صكتو الإسلامية.

إن طبيعة الدولة الإسلامية أو الإمبراطورية الإسلامية التي يريد الزعيم الديني المجدد تأسيسها تتطلب تأهيلا خاصا ومستوى معيناً من التعليم العربي الإسلامي يُنتج كوادراً علمية وإدارية تستطيع القيام بأعباء الإمبراطورية الإدارية والاقتصادية والفكرية وحتى العسكرية. وقد فتح رجال الدولة من العلماء النحارير بيوتهم ودهاليزهم لتعليم أبناء المسلمين الدين الإسلامي واللغة العربية وما أكثرهم. وبذلك انتشرت اللغة العربية انتشاراً لم يسبق له مثيل في هذه المنطقة قبل قيام حركة الشيخ عثمان بن فودي الإسلامية. وكان المثقف العادي هو الذي يقرأ ويكتب باللغة العربية ولو كانت الكتابة ركيكة، كما أن المتعلم هو ذلك الذي يستطيع قراءة القرآن ولو بدون فهم – ويكتب اللغة المحلية بالحروف العربية. XIV. وقد استطاعت الدولة أن تخرج جيلاً قادراً على سد جميع احتياجاتها الإدارية في دواوينها المختلفة للدولة، وقد قام هذا الجيل بهذا الدور خير قيام حيث وجدت دواوين منظمة ذات إدارات فعالة استطاعت أن تدير أمور الدولة بشكل مهني فعال حافظ على قوة الدولة أو الإمبراطورية المترامية الأطراف، وحقق لرعاياها الأمن والرخاء بفضل الله ثم بفضل اللغة العربية التي كانت لغة الثقافة والإدارة والسياسة في هذه الإمبراطورية. وظل الأمر كذلك إلى أن دخلها المستعمر الغاصب الذي حقد على الإسلام واللغة العربية فحصر دور العربية في زاوية ضيقة اختنقت اللغة العربية فيها ولم تجد متنفساً إلا بعد خروج المستعمر الغاصب الغازي.

ب- تجليات اللغة العربية في الحياة الفكرية والدينية

هذا وتظهر تجليات اللغة العربية الحضارية في الحياة العلمية والفكرية في كتابات رجالات الإمبراطورية ابتداء بزعيمها الروحي عثمان بن فودي

إلى وزيره وأخيه عبد الله بن فودي ثم ابنه الأمير محمد بلو بن عثمان بن فودي فأبنائه الآخرين وبناته، فولاته المتعددين والعلماء المنتشرين في ربوع الإمبراطورية.

مظاهر البناء الحضاري للشعر العربي في دولة صكتو

ب- تجليات اللغة العربية في الحياة الفنية والأدبية

يمكن القول إن فنون الشعر العربي في إمبراطورية صكتو تدخل تحت مفهوم جنسين من أجناس الشعر، وهما :

أ. الشعر الغنائي بأغراضه التقليدية من مدح ورتاء ووصف وفخر وهجاء وغزل بالإضافة إلى الشعر الإسلامي متمثلاً في جهاد الوثنيين ومقاومتهم في اضطهاد المسلمين.

ب. الشعر التعليمي بما يشمل من زهد ووعظ وإرشاد ومنظومات علمية.

أما الجنس الأول وهو الشعر الغنائي فقد أكثر القوم فيه إكثاراً شديداً، فمن مديح إلى رثاء إلى فخر إلى وصف إلى غزل إلى حماسة إلى شكوى إلى حنين إلى مدائح نبوية. ونظراً لطبيعة هذه الورقة الاختصاصية، سنكتفي بذكر مثالين فقط للشعر الغنائي.

نماذج من أشعارهم

المدح:

طرق شعراء العربية في دولة صكتو الإسلامية فن المدح ضمن أغراضهم الشعرية، وكان عندهم على مذهب زهير بن أبي سلمى الذي قال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "كان لا يعاقل بين الكلام .. ولا يمدح الرجل إلا بما فيه"^{xv} .. أي أنهم مدحوا لأن ممدوحهم يستحقون المدح ولم يمدحوا ليمثلوا جرابهم بالذهب والفضة - صنيع شعراء المدح التكسبي - وإنما كان ذلك صدى لوجدان الإنسان في أعماقهم. ومجمل القول إن المدح عندهم حب للمثالية المجردة وتعشق للقيم الطاهرة. وكان

أغلب الممدوحين من العلماء وقادة الفكر ورجال الدعوة الذين كانت لهم أياد بيضاء على الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية في المجتمعات الإسلامية بربوع المنطقة. أضف إلى ذلك أن الشعراء المادحين أنفسهم كانوا من نفس طبقات الممدوحين، ومن هنا قل المديح التكمسي في شعرهم، إذ أن الشعراء المحليين الذين يشعرون باللهاجات القومية قد كفوهم مؤونة التكسب بالمدح. وها هو ذا محمد البخاري ابن الشيخ عثمان بن فودي يمدح الشيخ محمد الجيلاني الأمير القائد، فبيداً قصيدته بالنسيب فيقول:

فبقيت بين الناس كالسكران
مذ بعدتني من جناها الداني
رجلٍ ومقلّة شادنٍ ظمآن
وترائبٍ كالدر والمرجان

فجعتك أم الفضل بالهجران
وكأنّ في قلبي وجوفي جمرة
قامت تراءي في القصور بفاحم
وبجيد مغزلةٍ وساقٍ خدلةٍ

حامي الذمار مجدل الشجعان
مر مذاقته لذي الأضغان
يوم الهياج وملتقى الأقران
هيجاء مثل محمد الجيلاني
وسخائه والعدل والإحسان
أصبحت ربّ حرافدٍ وحصان XVI

دع ذا وعد القول في رغم العدا
حلو الشمائل ليين لخليه
بطل أخي ثقةٍ يجود بنفسه
ما في القبائل كلها في الجود والـ
ملك القبائل والأمور بسيفه
وإذا نزلت به غريباً عافياً

وهناك نماذج عديدة للمديح لا تسمح مساحة هذا البحث بسردها. على أن المديح عند شعراء العربية في غربي أفريقيا عموماً وشعراء إمبراطورية صكتو خصوصاً، كان منبعثاً عن فكرة الإعجاب وحب الفضائل والإشادة بالخصال والسجايا الحميدة، فهو إذن مديح مثالي مجرد عن أي غاية إلا غاية التغني بالجمال المثالي الخلقى، فلم يكن، كما قلنا من قبل، لرفد الممدوح أو نيل عطاياه، كيف يكون ذلك والشعراء المادحون أنفسهم كانوا من نفس طبقات الممدوحين أي أنهم من طبقات العلماء والمفكرين ورجال السياسة. ولذا كان المديح عندهم حياً للمثالية المجردة وتعشفاً للقيم الطاهرة والتغني بالأخلاق المحمودة، وقد عبر هذا المديح عن مضامين وقيم أخلاقية وحضارية يمكن أن نلخصها في الآتي:

أ. قيمة الكرم والجود.

ب. قيمة القوة والشجاعة.

- ج. قيمة العفة والعدل والمساواة.
د. قيمة حسن الشيم والأخلاق والوفاء وشرف المحتد.
هـ. قيمة العطف والسماحة.

وهذه القيم المذكورة هي نفس القيم التي تغنى بها الشعراء القدامى منذ العصر الجاهلي مما جعل الناس جميعاً يودون أن يمتدحوا بها، غير أن شعراء العربية بغربي أفريقيا قد أضافوا أو أكدوا على قيم ومضامين جديدة أضفت على مديحهم الطابع الديني مما جعل صدى الدين ملازماً لشعرهم في جميع أغراضه كما كانت الطبيعة ملازمة للشعر العربي الأندلسي في جميع أغراضه. ومن هذه القيم والمضامين الجديدة:

- أ. قيمة العلم والتعليم.
ب. قيمة التقوى والزهد.
ج. قيمة تعمير المجالس بالذكر وتلاوة القرآن.
د. قيمة الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية والنود عن حمى الدين والدفاع عن المظلومين وكفالة الأيتام والأعمال الخيرية عموماً.

شعر الجهاد:

وقد أدى الشعر البطولي أو شعر الجهاد والمقاومة دوره الفعال في التغيير والبناء الحضاريين في دولة صكتو الإسلامية التي أسسها الزعيم الروحي والديني الشيخ المجدد عثمان بن فودي. وجد الزعيم المذكور مجتمعه منغمساً في انحطاط حضاري تمثل في الجوانب الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية، فعقد العزم على تطهير هذا المجتمع مما علق به من دنس الوثنية والبدع والخرافات والفواحش والظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي عن طريق الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة ونبذ ما سواهما و ذلك عن طريق جهاد الكلمة والقلم. هذا في أوساط المسلمين المنحرفين أصحاب البدع والخرافات.

أما في أوساط الوثنيين، فقد كان يدعوهم إلى الإيمان بالواحد الأحد وتوحيده بالعبودية المطلقة وترك عبادة الأصنام. فوجد المذكور اضطهاداً لدعوته الإسلامية والإصلاحية لدى ملوك الهوسا الوثنيين، كما لقي أتباعه الذين كانوا غالباً من الفلانيين من هؤلاء الملوك أذى كثيراً، الأمر الذي جعل الجو السياسي والاجتماعي مملوءاً بالاضطرابات الشديدة في أوائل فترة هذه الإمبراطورية الإسلامية، فكانت الحروب تدور رحاها في أنحاء الإمبراطورية والممالك الوثنية المجاورة لها. وكان لا بد من جمع الرجال المؤمنين للدفاع عن حمى الدين والمظلومين.

وقد هيات الحروب الطاحنة التي خاضها الشيخ المجدد ضد الأعداء ميداناً فسيحاً للشعراء والنظام، فغدوا يقرضون الشعر في هذا المجال باللغة العربية والفلاتية والهوسوية فكثرت بذلك ما يسمى بشعر الجهاد والمقاومة. وكانت الأهداف الرئيسية لهذا الشعر البطولي تسجيل الانتصارات الكثيرة التي أحرزها المسلمون المجاهدون ضد أعدائهم الوثنيين وتحريض الجماعة الإسلامية من أتباع الشيخ وإثارة حميتهم للقيام بالدفاع عن أنفسهم وعن عقيدتهم الدينية والتنديد بأعدائهم وتخويفهم بالترهيب والإنذار^{xvii}.

وكان شقيق الشيخ ووزيره الشيخ عبد الله بن فودي الملقب بعلامة السودان من طليعة من سجلوا الانتصارات الإسلامية من الشعراء. ففي وقعة "كت" xviii التي تم النصر فيها للمسلمين يقول عبد الله بن فودي:

بدأت ببسم الله والشكر يتبع
ليستأصلوا الإسلام والمسلمين من
توارق مع "غوبر" xix وينف سفيهم
على قمع كفار علينا تجمعوا
بلادهم والله في الفضل أوسع
يحزبهم والله يرى ويسمع

إلى أن قال:

وليس معي إلا قليلٌ أطاعني
ولما رأينا الفجر ضاء عموده
فسرنا إلى "غردم" وقد تم جمعنا
فزدنا جموع الكفر عن حوضه وقد
فظنوا محل الغيل ينصر جمعهم
ففروا إليها ثم صفوا وأنطقوا
إلى أن تراءينا وزاد اقترابنا
فلم يك إلا أن رأيت جهامهم
بنصر الذي نصر النبي على العدا
وكم من كمي جدلته سهامنا
وكم ذي جلالٍ صرعه أكفنا
طردناهم وسط النهار فلم يكن
لكل الجهات قد تفرق جمعهم
على السير بعد الأين والجوع يلذع
نزلنا فصلينا إلى أن تجمعوا
قبيل زوال اليوم والجمع يوزع^{xx}
رأوا جمعهم مثلي جماعتنا فعوا
وأن الربي من ناصرهم ستنفع
طبولهم والجمع يدنو ويتبع
رموا فرميناهم فولوا وأقشعوا
قد انكشفت عن شمس الإسلام تلمع
بيدر بجمع مملائك يجمع
وأسيافنا وأراته طير وأضبع
فجزت فنوس رأسه يتقطع
لهم غير غيل في دجي الليل مفرع
بداً ليوم الجمع لا يتجمع

وختم القصيدة بقوله:

فيا أمة الإسلام جدوا وجاهدوا
ففتلاكم في جنة الخلد دائماً
فليس لما تبني يد الله هادماً
ولا تهنوا فالصبر للنصر مرجع
وراجعكم بالعز والمال يرجع
وليس لأمر الله إن جاء مدفع

هذا، وقد رافق الشعر أغلب المعارك الإسلامية لدولة صكتو الإسلامية ، فكان ينبض بالقوة والتمكن ليثير في نفوس المسلمين دوافع الاقتحام والتحدي لصنع المستقبل المنشود الذي يبرم الله للأمة المسلمة فيه أمر رشد يعز فيه أهل طاعته ويهدى فيه أهل معصيته. ولما كان الشعر سلاحاً إعلامياً معبراً، فإنه كان قادراً على التعبير عن قيمة الانتصار من خلال ترسيخه قيم الثبات على المبدأ وإثارة روح الإقدام واستطابة الموت، التزاماً بمبدأ الجهاد والشهادة في سبيل العقيدة، ولفت أنظار المجاهدين إلى أن قتلاهم شهداء ومصيرهم الجنة حيث يلقون سيد الشهداء وليكن الموت في سبيل الله إذن أسمى أمانهم ومنتهى غايتهم. هذا، وقد أتم الله النصر للشيخ المجدد عثمان بن فودي و أعوانه فشيّدوا دولة إسلامية قوامها إقامة دين الله والعدل بين الناس والسعي لإعمار الأرض وتعميرها بما يرضي الله وينفع الناس، فأمن الناس في ظلها وسعدوا ردحا من الزمن، إلى أن غزاها هذه المرة المستعمر الغربي البغيض الذي سلب الأرض والديار وأهلك الحرث والنسل وأدخل المنطقة في ظلام ادعى أنه نور. ولا تزال آثار هذا الظلام الاستعماري- ممثلة في فكره الحضاري المادي الأحادي الجانب- تفتك بأهل المنطقة، فهو وإن كان قد خرج جسداً فقد بقي روحاً و فكراً ينخر سوسه في عظام المنطقة ولا يفتر. و القوم يتخبطون في فكره وحلوله المستوردين تائبين، وهم عن الصراط لناكبون. ومن المعروف أن من لا ماضي له لا حاضر ولا مستقبل له. و إن ماضي المنطقة المجيد كان من صنع الإسلام بوعائه الفكري الممتثل في اللغة العربية الثرية الشاعرة. أفلم يحن بعد لأبناء العربية والعروبة في المنطقة وفي العالمين العربي والإسلامي أن يضطلعوا بدورهم في استعادة مجد الإسلام واللغة العربية ودورهما الحضاريين؟ هذا نداء فهل من مجيب؟

الفذكرة

إن كون القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في اللغة العربية يعني في أدنى معانيه ومعادلاته المنطقية أن الإسلام الدين والحضارة - رغم عالميته التي تتعدى وتتجاوز حدود الزمان والمكان وحدود القوميات والحضارات والأجناس- يطلب من أتباعه إن هم أرادوا فقه معجزته ووعي مقاصده وتقديم رسالته وبناء حضارته الجامعة الموحدة أن يتعلموا اللغة العربية وأن يتعربوا لساناً لأن الشريعة عربية وإن كانت عالمية والرسول عربي

وإن كان مرسلًا إلى الناس كافة. وهذا يعني أن الإسلام قد أخرج لسان العرب من دائرته القومية الضيقة إلى آفاق عالمية واسعة النطاق ليجعله لسان كل مسلم يريد أن يفهم دينه. ولذلك، فإنه يجب أن يصرف إلى اللغة العربية العناية اللازمة لها من قبل المسلمين جميعاً. ولنا في سلف الأمة أسوة حسنة في هذه العناية والاهتمام البالغ بلغة القرآن ولغة الإسلام والمسلمين.

وتعلم العربية لا بدّ من أن يتم في مستويات بحسب غايات المتعلمين من المسلمين وغايات توحيد الأمة واستنهاضها. وأرى أن أدنى ما يجب من هذا الاكتساب للغة العربية هو المستوى المتوسط الذي يكفل التواصل الانتمائي الديني بين المسلمين جميعاً مما يؤكد على وحدتهم الفكرية والحضارية ويستوي في تحقيق هذا الواجب العامة والخاصة.

ⁱ لمزيد من التفصيل انظر الآتي:

الثقافة العربية في نيجيريا، ص ٢، د. علي أبو بكر، طبعة مؤسسة عبد الحفيظ البساط، بيروت.

حركة اللغة العربية وأدائها في نيجيريا، ص ٢، د. أحمد شيخو غلادنشي، رسالة دكتوراه.

ⁱⁱ انظر: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، ص ١٧٩، البكري، دار دي سلان، الجزائر.

ⁱⁱⁱ الثقافة العربية في نيجيريا، ص ٤٦.

^{iv} الدعوة الإسلامية في غربي أفريقيا وقيام دولة الفلاني، ص .

^v تاريخ السودان، ص ٢١٨.

^{vi} مملكة سنغاي في عهد الاسفين، ص ١٠٠.

^{vii} ليون الأفريقي، ص ١٠٩.

^{viii} مملكة سنغاي، ص ١٠٨.

^{ix} دولة سنغاي، ص ١٥٦ مع تصرف.

^x دولة سنغاي، ص ١٥٦.

^{xi} دولة سنغاي، ص ١٥٧.

-
- xii إيداع النسوخ، ص ٦٠٣.
- xiii لمزيد من المعلومات انظر : الثقافة العربية في نيجيريا / الدكتور علي أبو بكر ص ٣٧ ط مؤسسة عبد الحفيظ البساط - بيروت - لبنان.
- xiv انظر حركة اللغة العربية. ص
- xv طبقات فحول الشعراء، ص ٥٢، لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، ط دار المعارف.
- xvi الحرافد: كرام الإبل.
- xvii حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص ١٣٣ مع تصرف.
- xviii حوض في مدينة "غردم".
- xix غوبر: مدينة. وينف: اسم سلطانها ويطلق اسم غوبر أيضاً على القبيلة التي تسكنها.
- xx غردم: موضع.